أحراش أدبية

٠٠ كيف جئت ؟؟ كم اشارة مرور عبرت الى هذا الشارع ؟ فجأة انتبهت الى قدمى فوق رصيف شارع سليمان ٠ آخر طريق أذكره جيدا سور الازبكية ، وقفت عند باعة الكتب ٠ لم أجد كتبا جديدة ، عندما تجاوزت منتصف السور واقتربت من مدخل الحديقة استنشقت بقوة رائحة فول سودانى، دخان يتصاعد من مدخنة قصيرة ، وقفت خلف بائعة الفول ٠ كتمت أنفاسى٠ يد خشنةقاسية تقبض قلبى ٠ انحناءة الظهر ٠ الطرحة السوداء ٠ درت حولها ٠ رفعت وجهها وقالت فول يا بك ؟٠ خاب أملى عندئذ ٠ شعرت بحنين ، فى ذقنها وشم أخضر مثلث باهت كأمى تقارب الخمسين ٠ أمى ليس لها شهادة ميلاد ، سألتها ٠٠ كم عمرك يا أمى ؟ لا أعرف ٠ قلت كيف؟ قالت عندنا فى البلدة لا تبلغ العائلة عن وليدها فنبقى بلا شهادة ميلاد ٠ أى حنين ملأ نفسى لهذه المرأة بائعة الفول ؟ لو سألتها من أى بلدة أنت ؟ كدت أقول لها اتعرفين انك تشبهين أمى ؟ انطفأ نور اعلان أحمر فوق واجهة متجر ثم اضاء ٠ فحسست جيبى ٠ آه لو معى قرش زيادة عن حاجتى لاشتريت منها٠٠ ضحكت بنت تمشى خلفى ٠ توقف شاب يتأبط ذراع فتاة أمام متجر ، عبرت اشارة المرور، صاح الجندى٠٠ اسرع٠٠ اسرع ٠٠ وصلت الى الرصيف ، ولم اعتقد أنها تبيع الفول ؟ أى شىء تبيعه اذن ؟ التين الشوكى ؟ وهل تحتمل أصابعها شوك التين وانتزاعه آخر الليل بملقاط ؟ لا أظن ٠ ربما تبيع البليلة أو لقمة القاضى ٠ الحلوى أمام مدارس الاطفال ٠٠ ياه ٠٠ هذه أشياء كانت تعدها لى أنا فى طبق أو اثنين ، ولم لا تعدها للناس ؟٠ بدلا من واحد عشرة ، آه لو يوجد سجل يحوى أسماء البائعات كلهن ؟٠ ولو يوجد سجل كهذا لذهبت اليه وبحثت فيه عن اسمها وعرفت أين هى وأى شىء تبيع ؟٠ من أيام ٠٠ قمت مبكرا ٠٠ صباح الشتاء غامق٠٠ انبعث فى الصمت صفير راديو حاد ٠ لم تعمل محطات الاذاعة بعد ٠ مرت فترة ودقت ساعة بعيدة ست مرات رزينة باردة عميقة كالشتاء ، عند هذه الدقات استرد حريتى ، قفزت من السرير ولم أحدث ضجة حتى لا أوقظ صاحبى الراقد بجوارى ، خرجت ، الجو بارد ، برودة ثلجية تلسع الاطراف ، انفى وجبهتى وأذنى ٠ قميصى خفيف ، زمان ٠٠ عندما كنت أقصر من طولى الآن بخمس عشرة سنتيمترا أو أصغر من عمرى تسع سنوات ،كانت تقف بجسمها البدين القصير ٠٠

لا تخلع ملابسك الثقيلة ٠٠ الدنيا برد؟

فى السماء غمام رمادى متلاصق معتم، تمم البيوت الصفراء غارقة فى ضباب٠

لم أر ضـبابا أشد ولا أكثف من هـذا الضباب المخيم فوق القاهرة فى الصباح، ثقيل ·· لزج كاللبن ، من بعيد أصوات مخنوقة مرتجفـة ، فكرت بأى مدرسـة أبدأ ؟ وبالليل قبل نومى قال زميلى ··

ـ ابحث عنها أمام أى مدرسـة ربما تبيع الحلوى للصغار ·· أو البسكويت · يوجد عدد كبير من المدارس فى الحى ؟

·· أظن سبعة ·· تسعة ·· معظمهم مدارس ابتدائيـة وعلى العموم أسـأل المدارس هنا فى حوارى وأزقة ·

الشـارع خال فى الصـباح الا من بعض العمال يسيرون بسرعة · وعندما كنت أعمل فى ذلك المصنع، تبدأ نوبة العمل فى السابعة صباحا بالنسبة للسيدات، وهل هن سـيدات ؟ ها سـيدات ؟ أما الرجال فالسادسة والربع أقصى حد · بعدها الدقيقة بربع يوم ، لم يخصم منى مليما واحدا · أمى توقظنى فى الصباح على الرغم من البرد ، برد الشتاء، عربات الفول تقرقع عجلاتها الخشبية فوق بلاط الشارع المضلع، بعض الفوانيس مضاءة، نورها يسـيل ، شريط رفيع مختنق من الزيت ، زمان فى يوم الجمعة بالذات أنام حتى التـاسعة ، تتركنى أنام ، عنـدما أصحو أظل فى الفراش مغمض العينين · أفكر فى أشياء وأشياء ، أشعر بها تقترب منى ، تمد يدها لتلمس جبهتى ، تتراجع وتهمس لينم ويشـبع نوما ، تعـود الى جلسـتها ، آه يا أمى ·· آه يا أمى لـو رأيتهم فى السجن كيف تنهـال عصيهم علينـا لنقوم فى منتصف ليـل انثلج ، أى شىء تفعلينه وقتئذ ؟ توقفت فجأة ، مرقت سـيارات عديدة ضـخمة وجلس شـبان على سـور حديدى أمام مطعم ، يعلقون حول أكتافهم « بلوفرات » صوف ثقيلة ، شعرت بوخز البرد فى جسمى، اهذه طريقتكم لارتداء الملابس ؟ مد شاب يده وغمز فتـاة ، نظرت اليـه بغضب بتهتك ، كم الساعة الآن ؟ لو معى ساعة لن اسأل بنتا فمنظرى لن يأت لى بالرد، رجل أنيق ·

ـ كم الساعة من فضلك ؟

ـ آه ؟ آه ·· سيكس آندهاف ··

مصرى ؟ كأنه يقول لى يابن الكلب·· آندهاف ؟ لو عندى القدرة على الضحك لأستلقيت على قفاى ، والله حول رقبته سلسلة ، لم يتبق الكثير على القهوة ، لن أفـكر فيـه ·· كيف تعثر على أمك وآلاف منه موجودون ؟ القهوة ، لم يتبق الكثير عليها ، دقت الساعة يومها سبع دقات، درت على المدارس فى الحى واحدة بعـد الأخـرى ، بدأ الطريق يزدحـم بالصـغار ، جاء بائع كشرى ، وبائـع حمص شامى ، التف حولهما الصغار ، رحت أرقب وأبحث ، أقتربت من تلميذ صـغير أمام مدرسـة أخـرى فى حارة بعيدة ··

يا شاطر ·· الا تأت الى هنا بائعات؟

أى بائعات ؟

نساء عجائز يبعن أى شىء ·· لسن عجائز تمـاما ·· حلوى ·· دوم · ألم تر واحدة قصيرة فى وجهها وشم أخضر·

رفع رأسه · قال ··

·· هناك واحدة ضائعة منك كالتى تصفها ؟·

خفـق قلبى كمـا لم يخفق أبدا ، ملامحه بها شىء ·

·· نعم ابحث عن واحدة مثلها ··

قال الصغير ..

.. فى هذا المكان .. بجوار سور الجامع .. هذا السور الحديدى .. كانت تجلس امرأة . أتقول أنها قصيرة؟ كانت طيبة ولا تضحك على أحدنا وتتوصى بى .. و .. و ..

.. أين راحت .. أين راحت .. أين ؟

.. أين راحت ؟ طردها شيخ الجامع مرة .. رجعت ثانى يوم وجلست هنا مكان وقوفى .. نعم هنا .. وعندما رجعنا من الاجازة لم نجدها .. لكن والله سألنا بعضنا عنها .

.. ألم ترها فى شارع .. ميدان .. حارة ؟

حارة ؟

قال عم اسماعيل بائع الفول ..

.. حارة الوطاويط .. هل تعرفها ؟

.. طبعا مررت بها كثيرا ..

.. رأيت هناك امرأة ترتدى ثوبا أسود تجلس باستمرار ..

حارة الوطاويط ضيقة مبلطة ، قال صاحب دكان الورق الواقع بالقرب منها .

.. **فى هذه الزاوية** رأيتها كثيرا .. صامتة مغمضة العينين ترتدى دائما ثوبا واحدا لا تكلم أحدا ولا يكلمها أحد .. ويقول محمد فراش هذه المدرسة انه سمعها تبكى فى ليلة سوداء هطلت فيها الأمطار وأظن أننى لم أرها بعد ذلك . سألت بأسى . بعد هذه الليلة ؟ قال نعم . الا تعرف أين راحت ؟ قال لا أدرى ربما تجلس حول سيدنا الحسين فالمجذوبات ينمن هناك باستمرار ، قلت وهل بدت عليها علامات المجاذيب ؟ أجاب بصراحة والله أبدا .. لم تذكر شيئا أبدا .. صمت لحظة وقال .. لم تسأل هل أنت صحفى ؟ قلت أبدا .. أبدا لست صحفيا .. درت حول سيدنا الحسين . أين أنت يا أمى ؟ نساء يلبسن ثيابا بيضاء وخضراء . سألت عامل مقهى ، قال لا أعرف . سألت خادم الجامع ، قال لم أرها . سألت ، درت .. الصمت .. هكذا ؟ أهكذا ياأمى ؟ تذهبين ولا أدرى أين أنت ؟ خطاباتك وصلتنى بالعدد هناك . ثلاثة . احفظهم فى جيبى، آه لو أعرف من كتبهم لك؟ خمس سنوات ظللت أرى المغرب فيها أصفر كلون الرمال . السجن بصقة رجل مسلول فى صحراء واسعة مخيفة . فى وقت الراحة أجلس ورأسى بين يدى . الشعور بالخوف عليها يأكل نفسى كل يوم كصودا كاوية حارقة . أى شىء تفعله الآن ؟ كيف تعيش ؟ كيف تفكر ؟ أمى التى لو وضعتها على رأس الحارة لا تعرف طريق العودة الى البيت ؟ ويقول زملائى لا تشغل بالك ألم تقل انها تعرف حياكة الثياب؟ ربما ذهبت الى أقاربها . وتنزنق الشمس مختفية وراء الأفق . يسودنا سكون كئيب ، يجلس فوقنا الصمت ، الورقة لا تزال مدلاة من يدى ، يرتفع صوت زميل من خلفى ، مؤلما خافتا ، أتعرف أشعر بها كأنها أمى لم تكن لى أم طوال حياتى ان قلقى على أمك لا يقل عنك أبدا .. اسمح لى ، يقول آخر ، اننا نحبها بعد خروجنا لا بد أن نرها .. آه .. لم أجدها ، آه لو تعرفون أين هى الآن ؟ فى أى عمارة ، شقة ، حجرة ؟ مصنع ؟ فى هذه المدينة الهائلة المتوحشة

الضيقة ؟ فوق أى رصيف ؟ جدار ؟ **بلاطة ؟ تأكل ؟ تشرب ؟ تشعر ؟** تعرف أننى خرجت ، ابحث عنها وعن عمل لى ، لكن لا بد أعثر عليها ، لا بد ، لا بد ، ستصل اليك مهما كان الزمان وفى أىمكان، سأسند رأسى على قدميك، تعبثين بأصابعك فى شعرى ، الشمس فوق السطح ، حولنا الدجاج ، اى أيام **بعيدة هذه ؟؟** دافئة، مقبضة حزينة ، لا تخلو ساعة من صوتها ·· آه ·· هل أصدق نفسى ؟؟ اصدق اننى تشاجرت معها فى يوم ·· بل فى يومين ·· اكثر

من مرة ومرتين وبكيت ، ضربتنى ، بكت هى عندما خرجت هائما على وجهى الى باب النصر متصورا اننى سأصل عند شواهد قبوره الى نهاية العالم ، خرجت ورائى ، عادت بى الى البيت ، أنا لا اعرف الآن كيف أجدها وأرجع بها ، آه لو رأيتك فجأة تدبين وسط الناس حتى لو شحاذة لو أى شىء فقط أعثر عليك أى فرحة ؟؟ أى فرحة ستغمر وجهك الطيب؟ ربما ·· ربما لحقها العمى فى هذه السنين ؟· ستشعر بى؟ ولو·· ستشعر بوجودى ·· عندما عبرت ميدان الحسين، لم أصدق اننى أعيش ، لم أر شيئا ، اصوات الجارات وهن يتحدثن معى ، أقف أمام الحجرة التى ضمتنا ، شعرت بما حدث عندما فتحت باب غرفتنا شابة صغيرة ، أى شعور مزقنى ؟ فانقطاع الخطابات سنين نذير النذير ·

·· أمى ·· أين أمى ·· كنا نسكن هنا ؟·

·· اننى هنا من سنين ··

تلفت حولى ، ربما نسيت البيت ، لكنه هو ، هرعت الى أسفل ، خرجت جارتنا القديمة روحية البيت اذن هو البيت ، المسكن والحجرة والركن لكن أمى ·· أمى ليست فيه ··

·· آخر مرة رأيتها عندما جاء بعض الجنود وفتشوا البيت بعد ذهابك بشهور وسمعناها تبكى ولم يخرج أحد منا فكلنا نخاف منهم كما تعرف ولم نسمع صوتها بعد ذهابهم ··

·· ألم تريهم عندما نزلوا ·· ربما اخذوها معهم ··

·· لا نظرت من وراء النافذة بعينى كان معهم صاحب البيت وفى الصباح

ظلعت الى السطح ولم أجدها ·· كان الباب مفتوحا ··

الباب مفتوحا ··

·· والأثاث ··

·· **يا عينى عليها** ·· وهل بقى أثاث كسروا السرير وطردوها أكثر من مرة·· بعينى رأيتها تنام على بلاط السطح وأخذتها عندى أكثر من ليلة ·· الاثاث؟ باعت منه جزءا وتكسر منه جزء ·

الاثاث ؟ ضربتموها ·· ضربتموها ؟ الرقيقة·· البسيطة·· الطيبة القلب ·· طردتموها ونامت فوق بلاط السطح وصاحب البيت الجبان ·· اتعرفون ما الذى جرى لها ؟ اتعرفون ؟ هذه تحتمل ضرب ؟ جسمها خلق للضرب ؟ تفخر طوال عمرها بأن أبى حتى موته لم يرفع فى وجهها كفا، لم يضربها بعصاوتجيئون أنتم لتضربوها وأنا أعرف ضربكم ·· ياه ·· كيف احتملت ؟! كيف بكت ؟! كلكم السبب ·· آه لو أعثر عليها لأعوض لها ما فات ·· طبعا ازددت يا أمى كبرا على كبر ·· فى يوم تمددت فوق السرير بعد عودتى من العمل · اعدت لى الطعام ، أى طعام اعدتيه لى يا أمى ؟ وضعته فوق السرير · جلست بجواره صامتة ، أشعر بنظراتها تطول مدة ، تتنهد ثم تطرق برأسها ، يصرخ طفل فى الحارة ، تصيح امرأة تنادى ابنها ، ترفع أمى عينيها الى السقف ، ينبعث صوت راديو من بعيد ، فى أيام الغسيل تغنى ··

·· أدور على راح منى ··

أدور على راح منى ··

مرة واحدة سمعتها تغنى « على بلد المحبوب ودينى » ، لم تغسل أبدا فى أيام أجازتى ·· عدت مبكرا مرة ولم تكن انتهت من تنظيف البيت · رأيت وجهها أصفر شاحبا وعظمتى وجهها برزتا ·· ياه ·· لم تريحين نفسك ·؟

ضحكت وكلما أنظر اليها لا أشعر أنها غاضبة أو حزينة · كأنها تفكر فى أشياء حلوة بسيطة صغيرة ، كان مصباح صغير يضىء وجهها ، يومها أدركت أن أمى كبرت ، لم أشعر بذلك مطلقا من قبل ، أحسست أنى وقعت على اكتشاف هائل مريع ، أمى كبرت ؟ أعوام وأعوام ·· وخلال السنين الخمسة ·· كم زادت؟ كيف أصبحت ؟ وجهها ؟ كل شىء يتغير، وجهى به آثار جروح · هل سأعرفها· هل سأعرفها أم هى؟ قلب الأم دليلها·· دليلها ··

·· انتبهت الى أننى لم آخذ نفسى من لحظات طويلة ، دفعت الهواء الى صدرى ، عضضت شفتى بقوة ، وهؤلاء الناس ، أيعرفون أنى أبحث عن أمى ؟ يضحكون ·· اضحكوا يا ناس سليمان، السبب ·· السبب ·· اكره كل ما فى هذا الشارع وما يحيط به من شوارع حتى العطر الزائف الذى يملأ الهواء ، أنوار ميدان التحرير تبدو من هنا ، أين هذه القهوة التى يجلس عليها الموظف ؟ صاح بائع الجرائد ·· سألته عنها ··

ـ أمامك على الرصيف المقابل ··

لم أعبر الى الرصيف المقابل ··

لا زلت أقف على الرصيف المقابل للرصيف المقابل للـ ·· ماذا ؟· ارجع يا افندى خطوة ·· صاح عسكرى المرور ومنذ أيام وقع ضابط تحت ضربات زميل لك وصفق الناس واندفعوا ،

اندفعت معهم ·· تغيرت ؟ واذا زادتها السنين كبرا فكيف أصبحت ؟ ستزداد طيبة ، تعنى بى أكثر ، تغسل قمصانى أحسن ، تقتل البق وتطرده حتى لايقلقنى فى نومى ، تبحث لى عن زوجة ، هذا ما سيصيبها من تغيير · آه يا أمى ·· آه لو حلقت فوق البلدة كلها ، اصرخ واسأل ليعرف الناس أن أعز شىء عندى ضاع فيبحثوا معى عنها ويسألون بعضهم، فى القرى، فى الغيطان ، البلاد، يجدونها ·· أمك هاهى ، أصحيح لا يعرفون أين؟ الا تقول وجوههم انهم يعلمون ؟ ألم يقل الصبى أن بائعة طيبة لم تضحك عليه أبدا كانت أمام المدرسة ؟ وحارة الوطاويط ، أيعرفون ، ايعلمون ؟ اذن لماذا لا يتكلمون ··

·· **رائحة الصباح** تحمل الى صدرى الأسى، العاشرة وماقبلها، ادوخ بشوارع المدينة ، الشمس لها طعم ، خطوات الناس ، مشيهم ، العربات ، مذاق مر عندى لم ؟ لا أدرى ، ركبت **السيارة** ، **المحصل** يصيح بلا انقطاع ، سألت عن عمل فى عدة أمكنة وأخيرا نزلت فى مصر القديمة · ذهبت الى شون **الغلال** ، **الفول** والسمسم والذرة والقمح ، هنا تجار من بلدتنا ، كانت أمى تذكرهم دائما ، ربما عرفوها بعد أن اختطفت من حياتها ، نظروا الى شعرت انى نحيف وتائه ، فارجحت المراكب فوق النهر، تناثر رزاز خفيف وبدا الماء أسودا داكنا صرخ عامل صعيدى من فوق صارى · قال التاجر·

·· **يا ساتر ولم تجدها حتى الآن ؟**

·· **جئت اليكم ابحث عنها ·**

·· **لم نرها ·· لم نرها ··**

نظرت اليهم · صامتون · شعرت أنهم يكذبون · ان لم يروها فهم لمحوها مرة ولو صدفة على الاقل · احسوا بها ولو واحد منهم · واحد · هزوا رءوسهم العمة وقالوا ··

·· ياخسارة ·· بنت ناس ··

عندما قمت قال اكبرهم الشيخ فرج ··

·· بحثت عنها فى المستشفيات ؟؟

مضيت · اصوات العمال الصعايدة تتصاعد · يحملون المركب بأجولة القمح والذرة · مشيت حتى بقايا بوابات الفسطاط · ثم فم الخليج · ركبت الأتوبيس وسار بمحاذاة النيل · تذكرت موظفا يسكن بالقرب من باب اللوق · أمى رددت اسمه كثيرا أمامى من بلدتنا· صعدت الى مسكنه · فتحت لى الباب فتاة بنظارة طبية · قالت بابا غير موجود · قلت اين استطيع العثور عليه » · بالليل فى هذه القهوة ··

مزدحمة · تنعقد فوقها سحابات الدخان · لا بد ان أجده · لست أدرى ايعرفنى أم لا » سأطلب منه مساعدتى فى البحث عن عمل · اسمه يوسف وموظف ·

الشيخ فرج تاجر الغلال الكبير قال اسأل عنها فى اقسام البوليس ··

جارتنا روحية تلفتت حولها ومصمصت شفتيها · جاء جنود وفتشوا البيت · سمعناها تبكى · فى الصباح طلعت ولم أجدها ·

روحية لم تجدها وأسألهم عنها !؟ لو شخص آخر ·· يجوز · اما انا ؟؟ يساعدونى أنا ؟ يجدون لى أمى أنا ؟ ضابط يبحث معى أنا «كيف» من أبعدنى

عنها من سنين ·· سنين ؟ أبدا ، أبدا ، أبدا · آخر الدنيا ولا البوليس · أول الدنيا ولا البوليس · ملأ نفسى انقباض مفاجيء · ارتعش جسمى · شتاءنا البارد يثبت وجوده · أمس سقط المطر فى الصباح عبرت كوبرى قصر النيل · نظرت ناحية مبنى التليفزيون · فى السماء سحابة هائلة معتمة وضخمة لها طبقات فوق بعضها · رحت أتأملها · منظرها كالكرنب · مشيت فتحركت · وقفت عادت الى الثبات · ومن خمس سنوات لم اسمع صوت سقوط قطرات المطر فوق البلاط · تركت حارة الوطاويط الى أين ؟ جبل يعصمنا من الماء · أى ماء أى جبل يعصمها فى هذه المدينة » نسيج العنكبوت · زمان · سقط المطر مرات ومرات · تنبعث رائحة طلاء الجدران · تهمس أمى · أخاف ان يتسرب الماء من السقف · السقف قديم وعروقه خشبية اصطدم بكتفى شاب نقلت الكتاب من يدى اليمنى الى يدى اليسرى · درت فى المقهى · أكره رائحة الدخان · نظرت الى كل الجالسين حول المناضد · أين يوسف اين يوسف ؟ اقتربت من عامل المقهى

ـ يوسف محمود الموظف ؟

ـ لم يجيء الليلة ··

خرجت متمهلا ـ ضحك رجل بدين له كرش · لماذا لم يحضر ؟ ابنته قالت له ؟ ربما كان موجودا فى بيته ساعة سؤالى عنه · لم يهرب منى لم توقفت · يهبط الليل سريعا ثقيلا عندما يجيء أشعر بروحى تنسلخ منى · من التاسعة الى السادسة · لا استطيع أن أجدها حتى لو دارت هى تبحث عنى · سأبقى وحيدا فى السرير حتى يرجع صاحبى من نوبة عمله بالمصنع وينام · وقد لا أنام · وفى الفجر يجيء حارس الليل والقمقم · يوقع فى بطاقتى ثم ينصرف لا أعرف أين هى؟ يروح الناس ويجيئون ويضحكون · تحتك الأيدى بالارداف · مخلوقات شارع سليمان باشا · كانوا بشرا · لا يهمهم أن يعرفوا · عبرت اشارة مرور · ادركت ان الضوء لا زال لا زال أحمد لم اتوقف فى الصباح قال زميلى ·

ـ أخاف ان اصارحك بأفكار تدور فى مخى ·

ـ قلها ·· ما الداعى الى الخوف ؟

ـ لم تتوقع انها · يعنى أقصد · ربما

ـ ها ·· ماتت ؟

ـ ارجو ألا تغضب منى ·· ارى اصرارك واصرارنا معك لكن أخشى ضياع مجهودنا ·· اطرقت عندما نوقظنى فى الصباح تلح على فى النهوض الافطار المعد · مع السلامة الغسيل والغذاء · الجو حر رفعت رأسى · نار الموقد تزداد اشتعالا · فى الدور العلوى صاحت أم تنادى طفلتها المصروف نستيه قام صاحبى وقال ·

ـ هل ستخرج الآن ؟ ابق قليلا اما انا فسأخرج · · ميعاد عملى يقترب سأسأل قبل دخولى المصنع ·· فعندنا عجائز ·· ما أكثرهن !!